



مثلاً استعرت النار في مصالح الاحتلال الفارسي في مدينة مهاباد الكردية إلى الشمال الغربي من إيران، مثلما اشتعلت مواقع التواصل الاجتماعي بوسم #إيران_تشتعل وآخر بدرجة أقل #إيران_تحترق احتفاءً من نشطاء ومغردين بما يحصل في تلك المدينة الغاضبة من جراء مقتل فتاة كردية في طريق هروبها (سواء أكانت تعمدت قتل نفسها حفاظاً على عرضها أم كانت تحاول الهرب) من محاولة اغتصاب قام بها ضابط استخبارات إيراني بتواطؤ مع مدير فندق تارا لمساعدته في رفع تصنيف فندقه لخمس نجوم، بحسب رواية الأكراد.

لكن هل يمكن اعتبار هذا الغضب المضطرب في أنحاء كردستان الشرقية المحتلة من الفرس، هو حالة اشتعال حقيقة لعموم إيران، أم أن هذا محض مبالغة ألقتها مواقع التواصل في أي وسم مشابه؟

ربما لا يمكن توفير إجابة دقيقة عن هذا، لكن يمكننا أن نقترب كثيراً منها من خلال قراءة أولية لحالة الغليان تلك؛ فالعلمون أن تركيبة إيران الدينية والقومية هي خليط متضارب من المكونات التي لا يمكن صهرها في دولة واحدة إلا تحت ضغط مستمر، وليس بمقدور أي نظام يحكمها أن يستقر ما لم يصدر مشكلاته الخارج، ويخلق عدواً أو أعداء خارجين لتشتيت أنظار الشعوب داخل الحدود الإيرانية عن معاناتها الذاتية، وتبrier قمع التأثيرين منهم، لذا؛ فإن كياناً كهذا يتأثر بصورة كبيرة بمعاركه الخارجية التي تتعكس تلقائياً على مدى قناعة الداخل به، وبالطريقة التي يحكم بها هذه الشعوب.

وإذا كان النظام الإيراني قد تعرض لزلزال شديد في كل مناطق نفوذه الخارجية تقرباً؛ فإن قدرته على الصمود في الداخل لابد أن تتأثر بقوة بذلك.

وإذا ما أضيف لهذا أن النظام الإيراني يغلف كل ممارساته وقراراته بغلاف من العصمة المدعاة؛ فإن سرعة تأثيره بانكشاف زيف هذه القدسية وهو أسرع من غيره من لا يدعى لنفسه هذا، وأكبر منه فداحة في تداعياتها.

وما من شك أن النظام الإيراني، ظل لعقود قوياً، ممسكاً بزمام ملفات خارجية عديدة، ولديه قدرة كبيرة على التحرك والمناورة، كما أن لديه إرثاً هائلاً من المكر والمخادعات، تعود بجذورها لآلاف السنين، ولديه زخم عقدي "شعبي" يمنع لأتباعه التحاماً بقياداته الدينية، كما ولديه تطلعات قومية فارسية تجد لها أنصاراً كثيرين، إلا أن كل هذا كانت تحرسه إرادات دولية، ولم تزل، شأنها شأن النظامين الصهيوني والسوسي، وغيرهما، وتستمد منها تلك الغطرسة، وكانت، ولم تزل، محمية من المسائلات القانونية عن جرائم الحرب والإرهاب، وقمع الشعوب، وانتهاك الحريات الدينية والاجتماعية.. على أن هذا كله قد تعرض لاختبار عض أصابع، وتصارع إرادات مع الخليج الذي رأى أن النصل قد صار على العنق ولم يعد يمتلك

ترف التغاضي عن هذا التواطؤ الدولي حتى النهاية.

وما من شك أيضاً، أن قوى وفصائل في المنطقة قد سبقت القرار الخليجي في تحركها ضد الهيمنة الإيرانية فنالت منها في سوريا والعراق، بيد أنها أفادت منها جداً حينما هبت الدول الخليجية مع عملية عاصفة الحزم التي نالت من الغطسة الإيرانية بأكثر مما حققته حتى في اليمن، وجلبت من المكتسبات في هذا الإطار أكبر مما يمكن أن تحدده حدود اليمن؛ فبدأت كفة إيران تطيش شيئاً فشيئاً بما استأهل قراءة جاهزة من أقليات داخل السياج الإيراني السميك، فتشجعت على التحرك.

بالعودة إلى السؤال، هل يمكن اعتبار هذا اشتغالاً إيرانياً كاملاً أم هو محض انتفاضة كردية تمس نحو 10% من سكان إيران وحدهم؟

من حيث الرقعة الجغرافية للاحتجاجات؛ فهي ليست كبيرة، لكن من حيث التأثير تبدو استثنائية لأسباب عديدة، منها:

- **أن الاحتجاجات تحصل في منطقة ذات خصوصية ما؛ فثوارها يملكون الحاضنة الشعبية، الدينية (كستنة)، والقومية (ككرد)، وبالتالي، فاحتاجهم لا يشابه الحالات الأخرى التي يكون فيها الاحتجاج اجتماعي، أو سياسي كحالة بعض الدول العربية، التي يصعب وجود اتفاق بين أفراد المدينة الواحدة أو الحي الواحد عليها، وهذا يجعل استمرارها وارداً، أو اختزان ثورتها وارداً أيضاً.**

- **أن سبب تفجر الاحتجاجات عائد بشكل مباشر لفضيحة أخلاقية لنظام يدعي أنه متدين، وتمس العرض تحديداً، أعلى ما للمجتمعات المديدة، والمحافظة، كالأكراد، وهذا ينسف المقوم الأساس الذي يدعويه النظام لقيمه، وهذا يفوق الشرارة التي أشعلت انتفاضة تونس (حالة البوعزيزي التي تتعلق بصفعة شرطية لبائع متوجل فقير)، وثورة سوريا (حالة اقتحام أطفال كتبوا على جدار مدرستهم "الشعب يريد إسقاط النظام" على فظاعتها). وهو يختلف عن هاتين الحالتين لجهة التوثيق، حيث تم تصوير الفتاة وهي تتعلق بالشرفة ثم تسقط، بما لم يترك مجالاً للنظام لمداراة الفضيحة.**

- **أن اتساع نطاق الاحتجاج بشكل مفاجئ، واعتياد هذا النظام الدموي على قمع مثل هذه الاحتجاجات بشكل قاسٍ، قد وفر له "الثورة" وقودها الكبير، بعد القتلى والجرحى الذي تحول بدوره إلى مشكلة جديدة تضاعف المشكلة الأصلية، وتمكن الغاضبين مبرراً لهم لاستمرارها.**

- **أن جهوزية الأكراد، واستعدادهم السريع للمزاج بين الاحتجاج السلمي، والعسكري، وتشكيلاً على الفور "غرفة عمليات الانتفاضة"، بحسب نائب رئيس حزب الحرية الكردي حسين يزدان، الذي تحدث عن تحرك للشمركة الكردية، وتأكيده على أن "المقاتلين الأكراد يوجدون بالقرب من الناس وداخل المدن وسيتحركون في الوقت المناسب"، يعني أن احتمال استمرار تلك الانتفاضة، وتوفّر الحماية العسكرية الجزئية لها، أمر وارد، لاسيما إذا ما نظر للأمر من زاوية الباع الطويل للأكراد في "النضال العسكري".**

- **يضاف إلى النقطة السابقة تحديداً، أن للأكراد ما يشجعهم كثيراً على المضي قدماً في طريق النضال من أجل نيل حريةهم، أو إحراز تقدم في سبيل الحكم الذاتي؛ فالنحوات التي تحققت للأكراد في العراق، وحكمهم شبه المستقل هناك، وانتصارهم في كوباني السورية، وانحيازهم في زاوية شبه مستقلة في سوريا، والمكاسب التي تحققت في تركيا بعد مفاوضات شاقة مع حكومة أحمد داود أوغلو، جماعتها مغرياً لإكمال المشوار في إيران، خصوصاً أن أكراد إيران لن يتحركوا حائلاً وحدهم، بل لديهم من القواعد الخلفية في البلدان الثلاثة ما يساعدهم على الحصول على مكاسب، ولو ظرفية، من الإفادة من قضية عادلة، كذلك التي فجرتها جريمة فندق تارا، وخصوصاً أن إيران ليست في وضع يسمح لها بضم آذانها عن "صوت العقل" إذا ما صدر من "معتدلين" أكراد، أو التحسب لسماع أصوات "متشددة" قد تعزف على لحن الرصاص مستقبلاً.**

أن الأكراد إذ يناضلون اليوم؛ فإنهم لا يفعلون هذا منفردين، ففي الوقت الذي اندلعت فيه انتفاضتهم في مهاباد، ثم امتدت لمدن بوكان وشنو ومریوان وسردشت وسنه الكردية، بما اضطر سلطات طهران أن تستعين بقوات عسكرية وأمنية من أصفهان وهمدان وكرمان لوضع حد للاحتجاجات، كانت الأنباء تتصاعد عن عمليات ناجحة لجيش العدل البلوشي، في هذا الإقليم السني الذي يواجه بشجاعة، واحداً من أشرس الجيش البرية في المنطقة، ليس أقلها إحراق مركز شرطة إيراني في بلوشستان المحتجزة بالتزامن مع احتجاجات الأكراد، وأيضاً، اعتصامات ومظاهرات العمال الأحوازيين في منطقة الزوية، احتجاجاً على ممارسات نجل رفسنجاني (مهدى) التعسفية في شركة كيسون للأنفاق، وغيرها (حيث لم تزل أحداث الأحواز لم تهدأ لاسيما بعد انتفاضة مباراة كرة القدم قبل أسبوع قليلة. والحاصل أن الأقليات المسلوبة الحقوق تشجعت في الآونة الأخيرة، مع كثرة الشروح التي أصابت الصنم الإيراني، خارجياً، وداخلياً بدرجة أقل.

لكن، بغض النظر عما إذا كانت هذه الانتفاضات ظرفية أو فيصلية؛ فإنه على افتراض أنها عوارض طارئة؛ فإن لها بالتأكيد أثر ممتد على الدولة الإيرانية؛ فثمة أمور لا بد من أنها قد تغيرت، وتركت ندبات في الجسد الإيراني، منها أن صورة إيران كدولة دينية، قد تأثرت كثيراً، لاسيما أن فضائحها الأخلاقية من بعد السياسية أصبحت أكثر من أن تحد بسياسات استثنائية أو تجاوزات أخلاقية، ومنها أن صورة إيران كدولة قوية لم تعد كما سبق، خصوصاً أن من كان ينتظر من أتباعها ردتها في اليمن أصيب بخيبة أمل، وكذا من كان يتصور قدرتها غير المحدودة - بنظره - على فرض إرادتها بين جيرانها، هاله انكسار مليشياتها المدعومة من الحرس الثوري الإيراني في سوريا، والهائم المتواطية لحليفها بشار ونصر الله في سوريا، ومنها أن الروح المعنوية لقواتها لم تعد كما كانت من ذي قبل، ومنها أن قوى وفصائل للمقاومة المسلحة ضدها من الأقليات بدأت تتشكل وتحدث خرفاً مستمراً في قدرة أجهزتها الاستخبارية والأمنية وحتى العسكرية، ومنها أن بعض القوى الدولية قد مالت دوائرها السياسية والفكرية إلى خيار التوازن في المنطقة على التفوق الإيراني المنفرد الذي كانت تفضله من قبل، ومنها أن التوسيع الامبراطوري الذي مارسته طهران قد أرها إلى حد كبير، ولم تعد قادرة على الاستمرار فيه، ومنها أن الآثار المترتبة على انخفاض أسعار النفط قد وصلت باقتصاد إيران إلى نقطة حرجة ما بين التوسيع والانكفاء، وبدأ تميل إلى الخيار الثاني. من ثم، قد نلمس الآن تغيراً كبيراً في اتجاه "اشتعال إيران"، أو لا، لكن المؤكد - فيما يبدو للناظرين - أن غد إيران ليس كأمسها، وأن سنوات الانتعاش قد ولت.